صورة البطل من خلال الآخر الند في كتب المقاتل الحسينية

الأستاذ الدكتور ضياء راضي الثامري

الباحث علي محمد عبد الرضا

المقدمة:

يكتسب هذا البحث أهمية خاصة كونه تناول شخصية عظيمة شغلتْ الدارسين قديما وحديثا.من هنا جاء بحثنا الموسوم: (صورة البطل " من خلال الآخر النِدّ " في كتب المقاتل الحسينية). وتأتي أهمية البحث مما يأتي:

1. إن استشهاد الإمام الحسين (ع) ليس حدثاً حدث في الماضي وانتهى، بل هو شأنٌ حاضرٌ من شؤون حياتنا الحاضرة، فردية كانت أم جماعية، ونحن في هذا الوقت الحاضرة بحاجة لإعادة قراءة مفردات التاريخ والسيرة، و(كتب المقاتل الحسينية) تقف في مقدمة هذه المفردات، وتُعدّ أنموذجا لحركة تغيير هويتنا وتدخل في رسم تأريخنا.لذا علينا الاهتمام بكتب المقاتل وجدوى دراستها، والإحساس بقيمتها، كونها كنزا من كنوز الأدب العربي.

2. تغليب الجانب البطولي الأخلاقي على الجانب العاطفي المأساوي فالبعض يرى في كتب المقاتل الحسينية، إنها ترسم الحزن واللوعة والأسى دون النظر بعناية مركزة الى الجوانب المضيئة في واقعة الطف التي جعلت منها حدثاً يُجسّدُ كل القيم الإنسانية بمصاديق واقعية.

3. يعدُّ البحث إضافة معرفية تُضاف إلى بحوث أخرى في مجال البطولة، ويتفرد في تناوله شخصية بطولية جمعت كل ملامح البطولة الواقعية التي تميّز بها البطل العربي على مرِ العصور. إن تناول صورة البطل (من خلال الآخر الندّ)، شكّل لدينا فكرةً واضحةً عن نظرة البطل العربي لأنداده وخصومه ـ نظرة الممدوح ـ فكانت بحق صورة مشرقة جسّدتْ الفضاء المشترك ما بين البطولة والقيم الأخلاقية، ورسم العلاقة الوثيقة بينهما. وقد إعتمدنا في هذه الدراسة على مصادر ومراجع مختلفة وعديدة كان أهمها: كتب المقاتل الحسينية. ومعاجم اللغة. وكتب متفرقة في التأريخ والأدب والشعر.

المطلب الأول:

صورة البطل في تراثنا الأدبي العربي القديم:

أولا: مفهوم البطولة:

إن البطولة في أصلها اللغوي تعني (الشجاعة والاستبسال).وقيل: ماوصف بها الرجل الا لأنه "يبطل" حياة أعدائه عند ملاقاته، أو لأنه يواجه الخطوب والعظائم بقوة، فيبطل آثارها، ورجل بطل من البطالة والبطولة، شجاع تبطل جراحته، فلا يكترث لها، ولا تبطل نجادته، وقيل: إنما سُمي بطلاً لأنه يُبطل العظائم بسيفه، وقيل سُمي بطلاً لأن الأشداء يبطلون عنده، وقيل هو الذي تبطل عنده دماء الأقران، فلا يُدرك عنده ثأر[1] ويقول معجم مصطلحات الأدب في تعريف البطل إنه:

1. شخصية أسطورية قد تكون من سلالة إلهية حسب إعتقادات الديانات الوثنية والمشركة، لها قوة خارقة ومهارة تميزها عن البشر مثال ذلك هرقل أو آخيل في الأساطير اليونانية القديمة.

2. محارب شهير أو إنسان يُعجب به الناس لِما له من مآثر ومكرُمات، مثل عنترة عند العرب.[2] ومن الواضح أن النقطة الثانية من هذا التعريف تنطبق إلى حدٍ ما على البطل العربي.يقول الدكتور علي الجندي عن البطل في الشعر الجاهلي " هو ذلك الشخص الذي كانوا يعدونه ذخيرةً لوقت الخطر، وأهلاً للإعتماد عليه في القتال، يتصورون فيه الرجل الكامل بمعنى الكلمة، أو بعبارةٍ أخرى الشخص المثالي الحقيقي، ومع أن المقصود من البطل الناحية التي تتصل بالحرب وهي القوة والشجاعة، فقد وصفوه فوق ذلك بصفاتٍ أخرى لو إجتمعت كلها لكان شخصاً كاملاً في الخلق والصفات والعادات، ويظهر أنهم كانوا لا يُعنون بالقوة الجسمية فحسب، بل ما يشمل أيضاً القوة في العقل والقوة في الخلق والقوة في الشرف والكرامة "[3] واتسع مفهوم البطولة ليصبح صفةً إنسانيةً جامعةً للشجاعة والقوة والنجدة والصبر عند اللقاء. وإذا رجعنا إلى الأنساق الثقافية العربية نجد أنهم يترفعون عن مخالفة القواعد المتعارف عليها عندهمْ وهي أصل المروءة التي ترفض عدة أشياء، منها: طعن العدو من الخلف وهو مدبر، وقتل الأسير وخرق الهدنة، والإعتداء على المرأة، وقتل الأطفال والصبيان، وعدم إجارة من يستجير بهم، والتمثيل بجثة القتيل و...الخ.

ثانيا: البطلُ الندُّ في تراثنا الأدبي العربي القديم:

لو رجعنا إلى الأنساق الثقافية العربية، لوجدنا أنهم يضيفون أمراً آخر لمنظومة القيم العربية الأخلاقية والمتمثلة بالعزةِ والكرامةِ والشجاعةِ والإباءِ والحميةِ...الخ) ألا وهي: (النِدّية). وهي أن الفارس العربي ـ البطل ـ يرفض منازلة شخصٍ دونه في القدر، سواءً في الجانب الحربي أو الجانب السلمي، لأن ذلك يُعد بمثابة التقليل من شأن البطل.إن البطل معنيٌ بأن يتناقل الناس في مجالسهم أنه قد تغلب على بطل كريم مثله وأما في حالة خسارته أو موته، يهمه أن يتناقل الناس أنه قد قُتِل على يد بطل ليس بالهيّن، وشاهده لّما قُتل (عمرو

بن عبد ودٍ العامري) في واقعة الخندق، جاءت أخته فقالت: مَن قتله ؟ قيل: قتله علي بن أبي طالب، فقالت: كفءٌ كريم ! ثم انصرفت وهي تقول: [4]

لو كان قاتل عمرو غير قاتله... لقد بكيت عليه آخر الأبدِ
لكن قاتله من لا يعاب به... وكان يدعى قديماً بيضة البلدِ

وتبدو جمالية فكرة التكافؤ مع البطل الخصم بأوضحِ صورها في الشعر بعيداً عن ملابسات المعارك وظروفها لتنتج نصاً متنوع الإيقاع ومقسم الوحدات الصوتية والمعنوية في قِطعة جميلة للجون التغلبي، يسمع المتلقي منها وقع المبارزة، إذ يقول[5]:

من مبلغ شيبان أنـ ... ي لم يكنْ أمري خفيّا
راميتــهُ حتـى إذا.... ما كـان نبـلانا نفيّـا
طاعنتهُ حتــى إذا.... ما كان رمحانا شظيّـا

1. فقد انتهى إلى تقرير مَنعةِ وصلابةِ الخصم، وأناته الذي يكافئ تلك الخصال لدى الشاعر نفسه والذي يتكرر في قول حاجب بن زرارة التميمي في مقتل أشيم[6] فالندية أساس لا يُتنازل عنه بسهولة، وهو الشيء الذي يكون أحياناً خاتمة للحرب عندما يظفر أهل القتيل بندٍ يقتنعون به لمقتلهم من القبيلة القاتلة.وعلى خلاف ذلك، فإن الحرب تبقى قائمةً بينهمْ حتى يظفروا بشخص كفوءٍ لقتيلهم. فعندما وقعت الحرب بين قبيلتي، تغلب وبني بكر، والذي أشعل أوارها مقتل كليب، فإن قومه لم يقتنعوا برأس جساسٍ ـ قاتلِ كليب ـ كفواٍ له فكليب هو سيد قومه المطاع، وقائد الجحافل، وكليب العز، الذي كان مقتله سبب الحرب المشهورة بحرب البسوس وأيامها الكثيرة.[7] فكان المهلهل لا يرى نِداً لأخيه كليب حتى تنتهي الحرب بمقتله. وفي شعر عنترة نلمح توازناً معقولاً بين الفخر الفردي والقبلي مع اضافة تميز بها شعر عنترة وهي صورة البطل المنصف الذي تمثل بطولتهُ معياراً للبطولة الفردية عنده[8] وفي هذا الصدد يقول: (عندئذٍ نُجِّلُ هذا البطل المقاتل والذي يُجِّل

عدوه البطل المقاتل ويرى فيه عدواً في الحرب و اخا وابن عم في السلم وكفئا في القتال وندا في الفعال.(9) ولا شك في أن تلك المعايير ترسّختْ بوصفها معايير للبطولة وهي في الخاتمة إعتراف مباشر بمقام الخصم وقدرهِ وللآخر الند صوراً كثيرة في التراث الأدبي العربي لست بصدد استقرائها ولكني أردت توضيحها كونها نسقاً ثقافياً متأصلاً في الحضارة العربية لا غرو ولا غرابة أن نجد له شواهد في (كتب المقاتل الحسينية) من خلال ما رأيناه من صورٍ رسمت للآخر الند في معركة كربلاء. ولقد رأينا - الآخر - هو كل إنسان مختلف، سواءا كان هذا الاختلاف شكلي أو ضمني فالاختلاف من ناحية الشكل (صفات فيزيولوجية - بنى جسمانية...) أو ضمني بمعنى (فكرياً - سياسياً - دينياً - عرقياً..

المطلب الثاني:

النسق الثقافي والديني في شخصية البطل:

إن الآخر هو الضد، وهو النقيض ـ المختلف ـ والعدو الذي لا يمكن أن تُبنى العلاقة معه إلا على أساس تصادمي والاعتراف به كقرين أو شريك شبه معدومة.ولكننا مع هذا وذاك عثرنا على نماذج عديدة تصور لنا مفهوم الآخر الند تجلتْ صورته بأوضح مايكون في واقعة الطف سواءً قبل الواقعة أو بعدها.إن المكونات التي أسهمت في تعميق صورة الاخر الند في كتب المقاتل الحسينية كانت بنسق ثقافي وآخر ديني. أما الثقافي فيتمثل بما حفظه لنا التراث العربي من صور الندية والتي انعكست على الفرسان في حالتي السلم والحرب، فاستمرت حتى مجيء الإسلام وبدء المعارك الاسلامية. وأما الديني فقد انعكس في حروب صدر الاسلام وما تلاها، فقد انطلق أبطال المشركين في معركة بدر وهم (عتبة وشيبة والوليد) بدافع نسقي ثقافي دفعهم الى عدم قبول المبارزة مع الفتية الذين خرجوا لمبارزتهم في الحرب فقد طلبوا من النبي (ص)

أن يُخرج لهم نظراؤهم في البطولة والنسب و المنزلة والمكانة.....الخ. مما جعل النبي (ص) يستجيب لهم ويُخرج لهم ثلاثة من أبناء جلدتهم وهم: (حمزة وعلي وعبيدة) فعندما استسمحوهم أقرَّ المشركون أن هؤلاء أكفاءٌ كرماءٌ.[10] وله شواهد كثيرة في الجاهلية والإسلام. وإذا ما رجعنا إلى كتب المقاتل الحسينية وجدنا أن هذا المفهوم ورد في أماكن عديدة نستقضي منها ما يلي:

أولاً: إن معاوية بن أبي سفيان في أخريات حياته لم يكنْ يرىَ أن ليزيد نِدّاً غير أربعة أشخاص على رأسهم الإمام الحسين (ع) فقد جاء في وصيته ليزيد:[11] (... وإني لا أتخوَف أن ينازعَنك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفرٍ من قريش...). فذكر جماعة - أولهم - قال: الحسين بن علي، إلى ان قال: فإن خرج عليك فظفرت به فأصفح عنه، فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً وهنا نجد أن معاوية وضمن الأنساق الدينية يرى أن الحسين (ع) وإن كان خصمه ومنافسه في الحكم والرئاسة، إلا أن ذلك لا يمنعه من أن يشيد بفضل الحسين (ع) وماله من النسب والحق الديني العظيم مع أنه قاتل عليا (ع) في صفين فلو لمْ يكنْ يرَ في خصمه ومنافسه تلك الأهلية والخصوصية لما أوصى ابنه بذلك فهو اعتراف ضمني بكفاءة ومنزلة الحسين (ع).

ثانياً: ولما مات معاوية بن أبي سفيان، دُعي الأمام الحسين (ع) للبيعة في حضرة والي المدينة الوليد بن عتبة، وكان مروان بن الحكم حاضرا، فأشار على الوليد بقتل الحسين (ع) إن لمْ يبايع فالتفت إليه الحسين (ع) قائلا: (يابن الزرقاء أنت تقتلني أم هو ؟!، كذبت وأثمت)[12] إن الحسين (ع) ـ البطل ـ لا يرى في مروان ولا في الوليد كفوا وندا له، وقوله لمروان (يابن الزرقاء) يكشف لنا أن ليس هناك وجه مقارنة بين الحسين بن فاطمة بنت رسول الله (ص) وبين مروان بن الحكم طريد رسول الله (ص) وأعلن الحسين امتناعه عن بيعة يزيد قائلاً: (أيها الأمير.. إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، ومحل الرحمة، وبنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، وقاتل النفس المحرمة معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله ولكن نصبح

وتصبحون وننتظر وتنتظرون أينا أحق بالخلافة والبيعة)[13] ولو أردنا أن نعرض كلام الإمام الحسين (ع) ـ البطل ـ ونحلله في ضوء النقد الثقافي و - دراسته للواقعة - لتبين لنا إن الحسين بكل ما يحمل من أنساقٍ ثقافيةٍ ودينيةٍ مصمم على النهضة وأنه مقتول لا محالة، والذي يجعلنا مستيقنين من قتله (المثالية) التي كان يحملها... وهذا التناقض بين الأحلام المثالية للمشرعين وواقع الحياة صريح جارح لشعور المجتمع في محيط التنظيم السياسي[14] فالحسين (ع) كان يأمل بإقامة الخلافة الإسلامية المتمثلة بآل بيت النبوة (ع) فأنى له بقبول رجلٍ مثل يزيد؟! ولهذا (انتهى الأمر الى شِقّة الخلافة الواسعة بين الواقع والمثالي)[15] يقول جروني باوم: (ربما جاز لنا أن نرتاب في إن الخلافة ـ كما صوّرها الفقهاء ـ كان لها في أي يومٍ من الأيام وجود حقيقي).[16] أما ما جاء في كلامه (ع) من نعوت نعت بها نفسه في جملة مانعت بها أهل البيت (ع) فكلها كناية عن أحقيتهِ بمقام الخلافة لرسول الله (ص) فكأنه يريد أن يقول: من كانتْ هذه صفاته ومنزلته ـ أنّى ـ له أن يبايع ليزيد الذي صوّرهُ (ع) بأنه رجل متهتّك لا حرمة له ولا ذمام؟! فبالوقت الذي صوّر لنا نفسه بصورة المؤمن نجده (ع) قد صوّر الآخر الند بأوضح ما تكون عليهِ صورة الرجل الفاسق، من هنا فالندية التي يعتمدها الحسين (ع) لا تسمح له بالبيعة ليزيد وهذا معنى قوله (ومثلي لا يبايع مثله) أما حضور ظاهرة الأنا، وعلاقتها المركبة والمتشابكة مع الآخر فهذه الظاهرة نلمحها في جميع كلمات الحسين (ع) شعرا ونثرا، وكذلك نجد مفهوم الأنا في وحدانيّته وتوحّده مع (الأنا) لأهل بيته وأصحابه فمفهوم علاقة الأنا بالآخر (الندية والتضادية) تجلت في هذه الكلمات أما في موضوعة البلاغة في كلامه (ع) فقد كان الإيجاز واضحاً في كلامه، فقد أصاب المعنى وأوصل الرسالة إلى المتلقي بكلمات بسيطة ومعدودة[17] ولّدتْ لدينا قناعة كافية بأن الحسين (ع) لا يمكن أن يبايع مهما كانت النتائج. ولهذا كان بارعاً في مقصد بلاغي أخر وهو حسن الانتهاء (وهو أن يكون آخر الكلام الذي يقف عليه الخطيب أو الشاعر أو المسترسل

مستعذباً حسناً وأحسنه ما أذن بانتهاء الكلام حتى لا يبقى للنفس تشوقاً إلى ما ورائه)[18] فقد ختم كلامه بعبارة: (مثلي لا يبايع مثله) ما جعل كلامه ترنيمة هادئة انتهت بقوله: (أيّنا أحقُّ بالخلافة والبيعة ؟).ولرب سائل يسأل: لماذا لم يقل الحسين (ع) وأنا لا أبايعه ؟ بل قال: (ومثلي لا يبايع مثله) ؟! والجواب: إنه (ع) أراد بكلامه العموم والشمول، فأراد بها نفسه وجميع الناس. أما لو قال: وأنا لا أبايعه، فلنا أن نتصور أن المسألة شخصية وأن الحسين (ع) لم يكن مقتنعا بشخص يزيد على وجه الخصوص، ولكنه (ع) بهذا أعطى انطباعا للمتلقي، وهو أن كل حاكم كانت هذه صفاته فلا يمكن لي أن أبايعه وهذا شبيه قول الشاعر[19]

ولم أرَ مثل جيراني ومثلي... كمثلي عند مثلهم مقام

والذي يلفت النظر في كلامه (ع) أداة النداء أيُ في بدء كلامه (... أيها الأمير...) مع انها تستعمل لنداء البعيد ألا ان الحسين (ع) جاء بها ليقبل عليه المخاطَب ويستمع لما يأتي من (الفخر) في الخبر الذي يرنُّ سمعه عما قليل فيقول: (إنّا أهل بيت النبوة، و...) فقد خرج هذا الخبر مجازاً والغرض منه الفخر وتعريف المتلقي من هو الحسين (ع)[20].

ثالثاً: ما جاء في قصة مسلم بن عقيل (ع)، عندما خذله أهل الكوفة، استجار بهانئ بن عروة الثقفي، فأجاره هانئ وأدخله بيته، وسرعان ما طالبه عبيد الله بن زياد بتسليم مسلم، فأبى وردَّ عليه قائلاً (والله لا آتيك به... بلى والله، إن عليَّ في ذلك للخزي والعار، أنا أدفع جاري وضيفي وأنا حيٌّ صحيح أسمع وأرى، شديدُ الساعد، كثير الأعوان ! والله لو لم أكن إلا واحداً، ليس لي ناصرٌ، لم أدفعه...)[21] إن هذا الموقف العربي الأصيل من هانئ بن عروة، يرسم لنا (صورة البطل الندّ) الذي يأبى أن يسلّم ضيفه وجاره إلى عدوّه، حتى لو كلّفه ذلك حياته وهناك صورةً أخرى لهذا المفهوم ـ الندّية ـ عند بطلنا مسلم بن عقيل، الذي بقي وحيداً فريداً، وهو يقاتل أهل الكوفة

قتال الأبطال، وهم يرمونه بالحجارة، ويلهبون النار في أطنان القصب، ثم يقذفونها عليه من فوق السطوح، وهو يرتجز ويقول:[22]

أقسمتُ لا أُقتلُ إلاّ حرّاً... وإن رأيتُ الموت شيئاً نُكرا
أخاف أنْ أكذَبَ أو أغرّا... أو يخلط البارد سخنا مرّا
رُدَّ شُعاع الشمس فاستقرّا... كل إمرئٍ يوماً ملاقٍ شرّا

إن وحدة (البطل) وغربته واستماتته في القتال، دون الرضوخ لهم والاستسلام، يرسم لنا صورةً رائعةً (للبطل الندّ) الذي يرى نفسه من العزةِ والأنفةِ بمكانٍ، أن يواجه جيشاً بأكمله، دون أن يستسلم أو أن يتخلى عن عقيدته ومبادئه التي جاء من أجلها إلى الكوفة. فهو سفير الإمام الحسين (ع) وابن عمه، فكيف له أن يضع يده بيد (الدعي بن الدعي) ـ عبيد الله بن زياد ؟!

رابعاً: ما جاء في حملات الحسين (ع): وقاتل أصحاب الحسين (ع) قتالا شديدا، وأخذت خيلهم تحمل، وإنما هم اثنان وثلاثون فارساً، وأخذتْ لا تحملْ على جانب من خيل أهل الكوفة إلا كشفته، فلما رأى عزرة بن القيس ـ التميمي ـ وهو على خيل أهل الكوفة، أن خيله تنكشف من كل جانب بعث إلى عمر بن سعد.. فقال: أما ترى ما تلقى خيلي منذ اليوم من هذه العدة اليسيرة ! ابعث إليهم الرجال والرماة.. فقال لشبث بن ربعي: ألا تقدم إليهم؟ فقال: سبحان الله! أتعمد إلى شيخ مضر، وأهل المصر عامة تبعثه في الرماة!، لمْ تجدْ غيري من تندب لهذا ويجزي عنك ؟[23] وهذه الرواية تضع أيدينا على نقطتين:

الأولى: إنصاف الآخر الند، في قول عزرة بن قيس لعمر بن سعد: أما ترى ما تلقى خيلي وهذه شهاده للحسين (ع) ـ البطل ـ واصحابه في قتالهم وبسالتهم وماتركوا من أثرٍ في خيل أهل الكوفة مما جعل العدو يشهد لهم قبل الصديق.

الثانية: إن لصورة الآخر ـ الندّ ـ دلالةً عند الحسين (ع) وعند خصومهِ على حدٍ سواء، مما يجعلنا نعتقد أن هذا نسقاً ثقافياً لا يُستغنى عنه بحالٍ من الأحوال.

ولهذا نلمح التعجب في كلام شبث بن ربعي (سبحان الله) بل الدهشة والاستغراب أن ينزل من مقامه، ومنزلته الاجتماعية فيصبح كباقي القادة أو الجنود. وما الاستفهام الذي نراه في معرض حديثه إلا من دواعي التهكم والسخرية، وهو نسق ثقافي، يقول أبو الطيب المتنبي:

أفي كل يومٍ ذا الدمستق مقدم ... قفاه على الأقدام للوجه لائم[24]

ومن خلال هذا التهكم ندرك أن عمر بن سعد قد عرض غير مرة على شبث بن ربعي ما يحطُّ من مكانته ومنزلته بين قومه وعشيرته، ولهذا رأيناه يردُ بهذه الكيفية ويركز على مفهوم الندية. وفي موضوعة الإنصاف كان شبث يقول: يعطي الله أهل هذا المصر خيراً أبداً ولا يسددهم لرشد، ألا تعجبون أنّا قاتلنا مع علي بن أبي طالب ومع ابنه من بعده آل أبي سفيان خمس سنين ثم عدونا على ابنه، وهو خير أهل الأرض فقاتلناه مع آل معاوية وابن سمية الزانية ! ضلال يا لك من ضلال)[25]

خامساً: برز علي بن الحسين (ع) وهو يرتجز ويقول:

أنا علي بن الحسين ابن علي.... نحن وبيت الله أولى بالنبي
والله لا يحكم فينا ابن الدعي[26][27]

فقد رسم لنا في ارجوزته صوراً عديدة للبطل وللآخر الند، تمثلت في طغيان الأنا في أرجوزته، ما ينم عن اعتداده بنفسهِ ونسبهِ وهي قيمة لا يمكن ان يساوم عليها الابطال كذلك نلمح صورة البطل المفتخر الذي جمع بين الفخر والتعريض بندّهِ وما الفخر والأنا المتضخمة في خطابه إلا دليل على احقيّتهمْ بمقام النبوة وأن لا حق في هذا المقام للأدعياء. وهذه صورة من صور البطل التي تظهر من خلال المقارنة بين شخصية البطل وبين نده، حيث أن (ابن الدعي) كناية عن عبيد الله بن زياد و التعريض به و((قد أجمع الجميع على

أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح))[28] فكأنّه يريد أن يوجد مقارنة بل هو حقاً في مقام المقارنة بين نسب ينتهي إلى رسول الله (ص) وبين من هو دعيٌّ لا أصل له، وهو نسق ثقافي لأن العرب تعتّدُ بالأحساب و الأنساب كما هو معروف.فقد كنّى بأحسن لفظ وتعبير عن أقبح معنى في خصمه و ندّهِ فلا يمكن أنْ يصلْ هكذا إنسان ليكون ندّاً لبطلٍ كعلي بن الحسين (ع). والذي يؤيّد ما ذهبنا إليه، امتزاج الفخر الفردي عنده بالفخر الجماعي من خلال (أنا، نحن، فينا) إضافة إلى الأقسام الواردة في أرجوزته (و بيت الله) و (تالله) وهي مؤكدات خبرية لا تدع عندنا مجالاً للشك و الإنكار في أن هذا البطل لا يرى خصمه كفواً أو ندّاً له.

سادساً: و في انكسار نسقي يدعونا للتوقف و التأمل نجد أن مفهوم (الندية) قد تحوّل من الرجال الى النساء متمثلاً في شخص زينب ـ أخت الحسين ـ (ع)، عندما سأل عنها عبيد الله بن زياد ثلاث مرات، إلى أن أجابها بعض إمائها: هذهِ زينب إبنة فاطمة[29] إن بطلة كربلاء لم تكن ترَ في شخص ابن زياد أهلاً كي تكلمه، فهي من الشرف والعزة بمكان لايمكن أن يرقَ الخصم ليكون ندّاً - لزينب أبنة فاطمة - وهذا ما أدركه بعض إمائها عندما قالت: (هذه زينب ابنة فاطمة) ففي نسق مضمر كأنها تقول: وأنت إبن مرجانة فلست في موضع يؤهلك للتحدث معها. وشاهدنا قول الفرزدق في محضر هشام، يمدح زين العابدين (ع):

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجدّهِ أنبياء الله قد ختموا[30]

وفي موقف آخر لها في قصر يزيد بن معاوية، ردتْ عليه بالقول:

(ولئن جرّتْ عليَّ الدواهي مخاطبتك إني لأستصغر قدرك، وأستعظم تقريعك، وأستكثر توبيخك، لكن العيون عبرى، والصدور حرّى، ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجاء، بحزب الشيطان الطلقاء، فهذه الأيدي تنطُفُ من دمائنا، والأفواه تتحلّبُ مِنْ لحومنا، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تتناهبها العواسلُ وتعفرُّها أمهات الفراعل، ولئن اتخذتنا مغنماً،

لتجدنا وشيكاً مغْرَماً حين لا تجدُ إلا ما قدّمتْ يداكَ (وما ربك بظلامٍ للعبيد))[31][32] فالنبرة المتعالية التي تتحدث بها البطلة ـ زينب ـ جرّدتْ يزيد من كل ألقابه، فلم يكن ـ بحالٍ من الأحوال ـ بما يملكه من سلطةٍ ونفوذٍ، نداً لزينب التي تقف بين يديه سبيةً لا ناصر لها ولا معين، إلا قوة إيمانها بالله وتوكلها عليه سبحانه، فجعلته في صراع مرير لا يملك دفعه أو ردّه. فقد زلزلت ثقته بنفسه من خلال ما رسمته له من صور كنائية جعلت من غير المحسوس محسوساً في قولها: جرّت عليَّ الدواهي (ولا يخفى ما تضيفه عبارة الاستصغار والاحتقار من صراع نفسي داخل المخاطب)[33] ولمْ تكتفِ زينب بنت علي ـ البطلة – بهذا، بل وجّهتْ له صفعات أفقدته بها نشوة نصره المزعوم. إن المعركة النفسية لمْ تنتهِ إلى هذا الحد، بل أخذ المُنشئ يُذكّرُ المخاطَب بنهايتهِ في قوله: (و هل رأيكَ إلا فند، وأيامُك إلا عدد، وجمعك إلا بدد)[34] فأقرع أذنه من خلال فن الجناس الناقص ليوهنهُ بقرب موته الذي سيجردهُ من كل شيء)[35] والحق أن زينب – البطلة – في خطبتها صوّرت نفسها كأن مقاليد الأمور بيدها، وأن خصمها في أعلى درجات الضعف من خلال ما استعملته من أفعال (أستصغر – أستعظم – أستكثر).فـ (أستصغر) يستلزم تقابلها بلفظ (أستكبر) إلا إنها جاءت بلفظ (أستعظم) وهذا الفن يعرف عند البلاغيين بـ (تقابل الألفاظ سلباً)[36]، ثم ترسم صورة ليزيد تبين فيها ضعفه ونهايته المحسومة سلفا، عندما أراد أن يمحو ذكر أهل البيت (ع) قالت: (فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها، وهل رأيك إلا فند، وأيامك إلا عدد، وجمعك إلا بدد، يوم ينادي المنادي لعنة الله على الظالمين)فلم يكن ردّ يزيد عليها مكافئاً لكلامها، مخافة ردّها عليه بما هو أشد، بل اكتفى بهذا البيت فقط:

يا صيحةً تُحمدُ من صوائحِ... ما أهون الموتَ على النوائحِ [37]

سابعاً: لما قتل هاني بن ثبيت الحضرمي، غلام من آل الحسين، عِيبَ عليه ذلك وعيّروه أنه يقتل الصبيان، فليس من الرجولة والبطولة في شيء أن

يَقتل الفارس البطل الأطفال والصبيان فجعل يُكنّي عن نفسه قائلا: (إني لواقف عاشر عشرة لما صُرع الحسين، إذ نظرت إلى غلامٍ من آل الحسين عليه ازار وقميص، وفي أذنيه درتان، وبيده عمود من تلك الأبنية، وهو مذعور يتلفت يمينا وشمالا... وكانت أمه تنظر إليه وهي مدهوشة)[38] فهذه الصورة التي يرسمها للغلام جعلت الناس يلومونه ويعيبون عليه أن يقتل غلاما هذه صفته، فهو ليس نِداً له ولا كفواً له في الميدان، فلماذا يقتله !! ما اضطره أن يخضع لهذا النسق البطولي، فينسب قتل الغلام لغيره.

ثامناً: ما ورد في خطاب عبد الله بن عفيف الأزدي حينما ردّ على ابن زياد ما أورده من سباب وشتائم للحسين وأبيه علي بن أبي طالب (ع) فصرخ في وجهه قائلاً: ((يا ابن مرجانة: إن الكذّاب أبن الكذّاب أنت و أبوك و الذي ولآك وأبوه، يا بن مرجانة، أتقتلون أبناء النبيين، وتتكلمون بكلام الصديقين.. ؟))[39] فـ (ابن مرجانة) و(ابن الكذّاب) صورة كنائية لعبيد الله بن زياد جعلت المتلقي متلهفاً لسماع ما يرد بعد النداء ((فنشأت مقارنةً اجتماعية على وفق ما أملته الصورة أفضت إلى التصريح بنسب المخاطَب الذي لا يقوى على مواجهة ندّه الحسين (ع) الذي أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيراً، فأفقدتْ هذه الصورة المخاطَب نزاهة النسب في داخل المجتمع، من خلال تذكير الناس وتنبيههم بحقيقة نسب المخاطَب، ودناءته المتعارضة مع موقف الأمام الحسين (ع) وأهل بيته)[40] إذ عَمد ـ عبد الله ـ إلى إظهار الآخر بصورة لا يقوى معها أن يكون نِداً للحسين (ع) لا في المركز الاجتماعي ولا في المركز الديني. والحق إن الشخصية السلبية تجلت بأوضح صورها في عبيد الله بن زياد، فهو يمثل انكسارا نسقيا واضحا في منظومة القيم الأخلاقية العربية والإسلامية، فقد أقدم على قتل عبد الله بن عفيف ـ كفيف البصر ـ ولم يكن لمفهوم الندية عنده أي اعتبار. فالنظرة الضيقة عند هؤلاء أخرجتهم عن إطار ذلك المفهوم العربي الأصيل ـ الندية ـ التي يترفع البطل فيها عن قتل العاجز عن حمل السلاح، وعن قتل العدو إذا سقط سلاحه من يده وصار أعزلا. وكذلك إذا سقط

الفارس عن جواده، فإنهم لا يجهزون عليه مخافة العار، وأن لا يتوسل الفارس بوسائل رخيصة من أجل أن ينتصر في النهاية، ومنها أن يملك الماء ليقتل خصمه عطشا، فضلا عن أن يحارب النساء والأطفال بهذا السلاح إن يوم الطف كان منعطفا كبيرا وانكسارا نسقياً واضحاً في منظومة القيم الأخلاقية العربية، يقول العقاد: (... إن الحسين برح به العطش فلم يباله.. ولكنه رأى ولده عبدالله ـ الرضيع ـ يتلوى من ألمه وعطشه، وقد بُحَ صوته من البكاء، فحمله على يده، يهم أن يسقيه ويقول للقوم: (اتقوا الله في الطفل إن لم تتقوا الله فينا) فأوتر رجل من نبّالة الكوفة قوسه، ورمى الطفل بسهم وهو يصيح ليسمعه العسكران: (خذ اسفه هذا).. فنفذ السهم الى أحشائه !وكانوا يصيحون بالحسين متهافتين (ألا ترى الفرات كأنه بطون الحيات ؟!.. والله لا تذوقه حتى تموت ومن معك عطشا)[41].

الخاتمة:

ومن خلال ما تقدم تبين لنا، أن (النِدية) أساس لا يُتنازل عنه بسهولة، وهو خط أحمر لا يمكن أن يتجاوزه العربي الأصيل، ولا يمكن المساومة عليه بأية حال من الأحوال.ولعلهُ في عين الوقت يكون اعترافا مباشراً بمقام الآخر و قدره وإعلاء شأنه أو دونيّته، من خلال ما مرَّ بنا من أمثلة سقناها وشواهد ذكرناها. إن كتب المقاتل الحسينية تحوي خزيناً معرفياً وأدبياً كبيراً مغفول عنه، في قبال جوانب عاطفية بعيدة كل البعد عن روح النهضة الحسينية الإصلاحية. ولعلنا لم نتلمس جميع موارد الصورة للآخر (النِدّ) في كتب المقاتل الحسينية، وإنما أتينا بعيّناتٍ ثقافيةٍ واجتماعية ودينيةٍ حتى تكتمل " صورة البطل من خلال الآخر الند " في كتب المقاتل الحسينية.

الهوامش:

1- لسان العرب ـ ابن منظور ـ مادة بطل ـ56/11.
2- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ـ 78.
3- شعر الحرب في العصر الجاهلي ـ 90.
4- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ـ 175/1.
5و6- ديوان شعر الأيام:49و266. 7ـ ديوان الحارث و شعر بكر / 137.
8ـ 9ـ ديوان شعر الأيام /229و14 و48.
10ـ الكامل في التاريخ:280/1 11ـ تاريخ الطبري: 5 /322 ـ وقعة الطف: 73 -74
12- مقتل الحسين (ع) للخوارزمي 1/ 184مثير الاحزان/ 24 13ـ مثير الأحزان/24 .
14ـ الصورة الأدبية /71 ـ نقلاً عن حضارة الأسلام ترجمة عبد العزيز جاويد .
15و16ـ الصورة الأدبية/71و72.
17و18ـ البلاغة والتطبيق ـ177و451.
19ـ يتيمة الدهر51/1 ـ و شرح ديوان المتنبي ـ للواحدي 83/1
20ـ البلاغة و التطبيق /116. 21ـ وقعة الطف/141
22ـ مقاتل الطالبيين / 68. 23ـ وقعة الطف/235
24ـ شرح ديوان المتنبي للواحدي 100/1
25ـ وقعة الطف /112. 25ـ مثير الأحزان/296296
27ـ يعني عبيد الله بن زياد ـ لأن زياداً كان يُعرف بإبن ابيه لمجهولية نسبه حتى ألحقه معاوية بأبي سفيان ـ وأما عبيدالله فإبن مرجانة وجدّته سمية وهما بغيّتان، فكلاهما دعيّان، يُنظر يوم الحسين (ع)، العلامة الدكتور الشيخ فاضل المالكي ـ مؤسسة البحوث والدراسات الاسلامية ـ ط2. ص43 .
28ـ البلاغة و التطبيق /366 ـ نقلا عن دلائل الإعجاز / 55 .
29ـ وقعة الطف/ 299ـ 30ـ ديوان الفرزدق /511
31ـ اللهوف في قتلى الطفوف /118 ـ مقتل الحسين للخوارزمي /71/2
32ـ سورة فصلت ـ الآية 46
33ـ التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية ـ ص 163
34ـ اللهوف في قتلى الطفوف ـ ص 119
35و36 ـ التصوير الفني في كتب المسيرة الحسينية ـ/ 163و147

37ـ اللهوف في قتلى الطفوف ـ ص 119
38ـ الفتوح لأبن الأعثم الكوفي 134/5ـ 39ـ وقعة الطف ـ ص 302
40ـ التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية ـ ص 163
41ـ أبو الشهداء الحسين بن علي (ع) /32.

مصادر الدراسة:

القران الكريم.
1. أبو الشهداء الحسين بن علي ـ عباس محمود العقاد ـ نهضة مصر للطباعة والنشر ـ ط8، 2006 م.
2. البلاغة والتطبيق ـ د. كامل حسن البصير ـ د. أحمد مطلوب ـ مطابع بيروت الحديثة ـ بيروت ـ لبنان ـ ط1
3. تاريخ الأمم والملوك ـ محمد بن جرير الطبري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط1، 1407هـ.
4. التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية (من مكة الى المدينة) ـ إعداد: هادي سعدون هنون ـ مكتبة الروضة الحيدرية ـ النجف الأشرف ـ 2012م
5. ديوان الحارث بن حلزة اليشكري ويليه شعر بكر وأخبارها في حرب البسوس ـ إعداد: طلال حرب ـ دار صادر ـ ط1، بيروت ـ 1996م.
6. ديوان شعر الأيام ـ جمع وتحقيق: د. عفيف عبد الرحمن ـ دار صادر ـ ط1 1998
7. ديوان الفرزدق ـ شرحه وضبطه وقدّم له الأستاذ: علي فاعور ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ط1، 1407هـ /1987م.
8. شرح ديوان المتنبي ـ وضعه: عبدالرحمن البرقوقي ـ الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ ط1، 1986م.
9. شعر الحرب في العصر الجاهلي ـ الدكتور علي الجندي ـ مكتبة الجامعة العربية ـ بيروت ـ ط3، 1966م.
10. الصورة الأدبية ـ د. مصطفى ناصف ـ دار مصر للطباعة ـ ط1، 1958م.
11. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ـ أبو الحسن بن رشيق القيرواني ـ ت456هـ ـ تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا ـ دار الكتب العلمية ـ ط1، بيروت ـ 2001م.
12. الفتوح ـ أحمد بن أعثم الكوفي (ت314هـ) ـ ترجمة ـ تحقيق: علي شيري ـ الناشر: دار الأضواء للطباعة والنشر ـ ط1 ـ 1991م.

13. الكامل في التاريخ ـ علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني عز الدين أبو الحسن ابن الأثير ـ ت630هـ ـ بيت الأفكار الدولية.
14. لسان العرب ـ إبن منظورأبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ـ دار صادر ـ بيروت
15. اللهوف في قتلى الطفوف ـ علي بن محمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس الحسيني ـ منشورات السجدة ـ مطبعة الهادي ـ ط1، 2003م.
16. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ـ مجدي وهبة ـ كامل المهندس ـ مكتبة لبنان ـ بيروت، 1979
17. مقاتل الطالبيين ـ أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ت356هـ ـ منشورات الفجر للطباعة ـ لبنان ـ بيروت ـ ط1، 1430هـ /2009م.
18. مقتل الإمام الحسين عليه السلام، المسمى بـ: مثير الأحزان ومنير سبل الأشجان ـ إبن نما الحلي ـ تحقيق معين الحيدري ـ مكتبة دار المعرفة ـ النجف ـ ط1، 2012م.
19. مقتل الحسين الخوارزمي أبو المؤيد الموفق بن أحمد المكي أخطب خوارزم،تحقيق محمد السماوي. انتشارات أنوار الهدى ـ قم ـ ط2 ـ 1433/ 1993.
20. وقعة الطف ـ (لأبي مخنف) لوط بن يحيى الغامدي الكوفي ت157هـ ـ تحقيق: الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي ـ دار التعارف ـ بيروت ـ ط3، 2012م.
21. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ـ المؤلف: عبد الملك الثعالبي النيسابوري أبو منصور ـ المحقق: مفيد محمد قميحة ـ دار الكتب العلمية ـ ط1 ـ 1983م.